﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [سورة الأنبياء: ١٠٧]

فبه بين الله لنا طريق الجنة وحذرهم من الشرط والضلالة:

روى الشيخان عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم)) :إنما مَثَلي ومَثَلُ أُمَّتي كمَثَلِ رَجُلٍ استوقَدَ نارًا، فجعَلَت الدَّوابُّ والفراشُ يقَعْنَ فيه، فأنا آخِذٌ بحُجَزِكم وأنتم تَقَحَّمون فيه. ((
بوب الإمام الدارمي في سننه: بَابُ مَا كَانَ عَلَيْهِ النَّاسُ قَبْلَ مَبْعَثِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ الْجَهْلِ وَالضَّلَالَةِ.

عَنْ مُجَاهِدٍ، قَالَ: حَدَّثَنِي موْلَايَ [قيس بن السائب]: أَنَّ أَهْلَهُ بَعَثُوا مَعَهُ بِقَدَحٍ فِيهِ زُبْدٌ وَلَبَنٌ إِلَى آلِهَتِهِمْ، قال: فَمَنَعَنِي أَنْ آكُلَ الزُّبْدَ لِمَخَافَتِهَا، قَالَ: " فَجَاءَ كَلْبٌ فَأَكَلَ الزُّبْدَ وَشَرِبَ اللَّبَنَ، ثُمَّ بَالَ عَلَى الصَّنَمِ وَهُوَ: إِسَافٌ، وَنَائِلَةُ ".

قال الطبري: وَالْعَالَمُونَ هَهُنَا: مَنْ آمَنَ بِهِ وَصَدَّقَهُ وَأَطَاعَهُ " وَأَوْلَى الْقَوْلَيْنِ فِي ذَلِكَ بِالصَّوَابِ الْقَوْلُ الَّذِي رُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَهُوَ أَنَّ اللَّهَ أَرْسَلَ نَبِيَّهُ مُحَمَّدًا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَحْمَةً لِجَمِيعِ الْعَالَمِ، مُؤْمِنِهِمْ , وَكَافِرِهِمْ. فَأَمَّا مُؤْمِنُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ هَدَاهُ بِهِ، وَأَدْخَلَهُ بِالْإِيمَانِ بِهِ , وَبِالْعَمَلِ بِمَا جَاءَ مِنْ عِنْدِ اللهِ الْجَنَّةَ. وَأَمَّا كَافِرُهُمْ فَإِنَّهُ دَفَعَ بِهِ عَنْهُ عَاجِلَ الْبَلَاءِ الَّذِي كَانَ يَنْزِلُ بِالْأُمَمِ الْمُكَذِّبَةِ رُسُلَهَا مِنْ قَبْلِهِ.

{وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ } [الأنفال: ٣٣]

والصواب أن النبي صلى الله عليه وسلم كان رحمة لجميع المخلوقات من أنس وجن وحتى البهائم والجامدات.

والأمثلة على ذلك كثيرة نستعرض بعضا منها:

رحمتُه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بأمَّتِه:

عن عبدِ اللهِ بنِ عَمرِو بنِ العاصِ رَضِيَ اللهُ عنهما))أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم تلا قولَ اللهِ عزَّ وجَلَّ في إبراهيمَ :رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ]إبراهيم: ٣٦ [، وقال عيسى عليه السَّلامُ :إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ]المائدة: ١١٨ [، فرفَع يديه وقال: اللَّهُمَّ أمَّتي أمَّتي، وبكى! فقال اللهُ عزَّ وجَلَّ: يا جِبريلُ اذهَبْ إلى محمَّدٍ -وربُّك أعلَمُ- فسَلْه: ما يبكيك؟! فأتاه جبريلُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، فسأله، فأخبره رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بما قال -وهو أعلَمُ-، فقال اللهُ: يا جِبريلُ، اذهَبْ إلى محمَّدٍ، فقُلْ:إنَّا سُنرضيك في أمَّتِك،ولا نَسوءُك . ((مسلم

روى الشيخان عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةٌ مُسْتَجَابَةٌ، فَتَعَجَّلَ كُلُّ نَبِيٍّ دَعْوَتَهُ، وَإِنِّي اخْتَبَأْتُ دَعْوَتِي شَفَاعَةً لِأُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَهِيَ نَائِلَةٌ إِنْ شَاءَ اللهُ مَنْ مَاتَ مِنْ أُمَّتِي لَا يُشْرِكُ بِاللهِ شَيْئًا».

وقد كان رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يتركُ بعضَ النَّوافلِ خوفًا من أن يُفرَضَ على أمَّتِه إذا فعلوه اقتداءً به، كما ترَك القيامَ في شهرِ رمَضانَ بعدَ أن قام بهم ليلةً أو ليلتينِ .فلم يمنَعْه من المواظبةِ عليه إلَّا خَشيةُ أن يُفرَضَ على أمَّتِه، وكان بالمُؤمِنين رؤوفًا رحيمًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم .

وعن أبي هُرَيرةَ أيضًا: أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال)) :لولا أن أشُقَّ على أمَّتي -أو على النَّاسِ- لأمرتُهم بالسِّواكِ مع كُلِّ صلاةٍ. ((

وعن أبي هُرَيرةَ قال: قال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم)) :لولا أن أشُقَّ على أمَّتي لأمرتُهم أن يؤخِّروا العِشاءَ إلى ثُلُثِ اللَّيلِ أو نِصفِه. ((

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال)) :والذي نفسُ محمَّدٍ في يَدِه لولا أن أشُقَّ على المُؤمنين ما قعَدْتُ خَلفَ سَرِيَّةٍ تغزو في سبيلِ اللهِ، ولكِنْ لا أجِدُ سَعةً فأحمِلَهم، ولا يجِدون سَعةً فيَتَّبِعوني، ولا تطيبُ أنفُسُهم أن يَقعُدوا بعدي. ((متفق عليه

-رحمتُه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بالصِّغارِ:

وجاءه أعرابي فرآه يُقبّل الحسن بن علي رضي الله عنهما فتعجّب الأعرابي وقال : " تقبلون صبيانكم ؟ فما نقبلهم " فرد عليه النبي صلى الله عليه وسلم قائلاً : (أو أملك أن نزع الله من قلبك الرحمة ؟) .

وصلى عليه الصلاة والسلام مرّة وهو حامل أمامة بنت زينب ، فكان إذا سجد وضعها ، وإذا قام حملها .

وكان إذا دخل في الصلاة فسمع بكاء الصبيّ ، أسرع في أدائها وخفّفها ، فعن أبي قتادة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (إني لأقوم في الصلاة أريد أن أطول فيها، فأسمع بكاء الصبي ،فأتجوز في صلاتي ، كراهية أن أشقّ على أمّه) رواه البخاري ومسلم.

وكان يحمل الأطفال ، ويصبر على أذاهم ، فعن عائشة أم المؤمنين أنها قالت: (أُتي رسول الله صلى الله عليه وسلم بصبي ، فبال على ثوبه ، فدعا بماء ، فأتبعه إياه) رواه البخاري.

وكان يحزن لفقد الأطفال ، ويصيبه ما يصيب البشر ، مع كامل الرضا والتسليم ، والصبر والاحتساب ، ولما مات حفيده صلى الله عليه وسلم فاضت عيناه ، فقال سعد بن عبادة - رضي الله عنه : " يا رسول الله ما هذا؟ " فقال : (هذه رحمة جعلها الله في قلوب عباده ، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء) .

رحمتُه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بالكُفَّار:

-عن عائشةَ رَضِيَ اللهُ عنها زوجِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنَّها قالت للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم)) :هل أتى عليك يومٌ كان أشَدَّ من يومِ أُحُدٍ؟ فقال: لقَد لَقِيتُ مِن قَومِكِ، وكانَ أشَدَّ ما لَقِيتُ منهم يَومَ العَقَبَةِ؛ إذْ عَرَضْتُ نَفسي على ابنِ عبدِ يَالِيلَ بنِ عبدِ كُلَالٍ، فلم يُجِبْنِي إلى ما أرَدْتُ، فانطَلَقْتُ وأنا مَهمومٌ على وَجهي، فلم أستَفِقْ إلَّا بقَرنِ الثَّعَالِبِ، فرَفَعتُ رَأسي فإذا أنا بسَحابةٍ قد أظَلَّتني، فنَظَرتُ فإذا فيها جِبريلُ، فناداني، فقال: إنَّ اللهَ عزَّ وجَلَّ قد سمِعَ قَولَ قَومِك لك وما ردُّوا عليك، وقد بَعَث إليك ملَكَ الجِبالِ لتَأمُرَه بما شِئتَ فيهم، قال: فناداني مَلَكُ الجِبالِ وسَلَّم عَلَيَّ، ثمَّ قال: يا محمَّدُ، إنَّ اللهَ قد سمِعَ قَولَ قَومِك لك، وأنا مَلَكُ الجِبالِ، وقد بعثَني ربُّك إليك لتَأمُرَني بأمرِك، فما شِئتَ؛ إنْ شِئتَ أن أُطبِقَ عليهم

الأخشَبَينِ، فقال له رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: بل أرجو أن يُخرِجَ اللهُ من أصلابِهم من يعبُدُ اللهَ وَحدَه لا يُشرِكُ به شيئًا. ((

رحمتُه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بالحَيَوانِ:

عن عبدِ اللهِ بنِ جعفرٍ رَضِيَ اللهُ عنه قال)) :أردَفَني رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم خَلْفَه ذاتَ يَومٍ، فأسرَّ إليَّ حديثًا لا أُحَدِّثُ به أحدًا مِنَ النَّاسِ، وكان أحبَّ ما استتر به رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لحاجتِهِ هَدَفٌ أو حائِشُ نخلٍ فدخلَ حائطًا لرجلٍ من الأنصار فإذا جمَلٌ، فلمَّا رأى النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم حنَّ وذرَفَت عيناه، فأتاه النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فمَسَح ذِفْراه ، فسكَت، فقال: من رَبُّ هذا الجمَلِ؟ لِمَن هذا الجَمَلُ؟ فجاء فتًى من الأنصارِ، فقال: لي يا رَسولَ اللهِ. فقال: أفلا تتَّقي اللهَ في هذه البهيمةِ التي ملَّكك اللهُ إيَّاها؛ فإنَّه شكى إليَّ أنَّك تُجيعُه وتُدْئِبُه . (

-عن عبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللهُ عنه قال)) :كنَّا مع رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في سَفَرٍ، فانطلق لحاجتِه فرَأَينا حُمَّرةً معها فرخانِ، فأخَذْنا فرْخَيها، فجاءت الحُمَّرةُ فجعَلَت تُفَرِّشُ، فجاء النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فقال: من فجَّع هذه بولَدِها؟ ردُّوا ولَدَها إليها. ورأى قريةَ نملٍ قد حرَقْناها فقال: مَن حرَق هذه؟ قُلْنا: نحن. قال: إنَّه لا ينبغي أن يُعَذِّبَ بالنَّارِ إلَّا ربُّ النَّارِ. ((!

رحمتُه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بالجَمادِ:

-عن جابِرِ بنِ عبدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عنهما)) :أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كانَ يَقُومُ يَومَ الجُمُعَةِ إلى شَجَرةٍ -أو نَخلةٍ- فَقالتِ امرَأةٌ مِنَ الأنصارِ -أو رَجُلٌ-: يا رَسولَ اللَّهِ، ألا نَجعَلُ لك مِنبَرًا؟ قال: إن شِئْتُم. فجَعَلوا له مِنبَرًا، فلمَّا كان يَومُ الجُمُعةِ دُفِعَ إلى المنبَرِ، فصاحَتِ النَّخلةُ صِياحَ الصَّبيِّ، ثمَّ نزَلَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فضَمَّه إليه ، تَئِنُّ أنينَ الصَّبيِّ الذي يُسَكَّنُ. قال: كانت تَبكي على ما كانت تَسمَعُ مِنَ الذِّكرِ عِندَها. ((

@ تطبيق :

(عن عبد الله بن عمرو بن العاص- رضي الله عنهما- قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «الرّاحمون يرحمهم الرّحمن، ارحموا أهل الأرض يرحمكم من في السّماء»)

فالجزاء من جنس العمل فكلما زاد عندك الاتصاف بصفة الرحمة في جميع معاملاتك مع جميع الخلق على جميع المستويات كلما نلت حظا أوفر من رحمة الله في الدنيا والآخرة.